سورة القصص [1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسم ① ﴾

الحروف المقطعة فى بدايات سور القرآن مرة يأتى حرف واحد مثل (ق ، ن) أو حرفان مثل (طس ، حم) أو ثلاثة أحرف مثل (الم ، طسم) أو أربعة مثل (المر) أو خمسة مثل (حمعسق ، كهيعص) وكل منها له مفتاح وأسرار لم يفتح علينا بعد لمعرفته وما قلنا فى معنى هذه الحروف مجرد محاولات على الطريق .

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ② ﴾

(١) سورة القصص هى السورة رقم (٢٨) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٨٨ آية . وهى سورة مكية كلها فى قول الحسن وعكرمة،وعطاء . قال ابن عباس وقتادة : إلا آية نزلت بين مكة والمدينة . وقال ابن سلام : بالجحفة فى وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وهى قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ .. (٨٥) ﴾ [القصص] [راجع تفسير القرطبى ٥١٣٣/٧] . نزلت هذه السورة بعد سورة النمل (كما هى فى ترتيبها فى المصحف) وقبل سورة الإسراء . [الإتقان فى علوم القرآن ٢٧/١] .

يعنى : ما يأتى فى هذه السورة آيات الكتاب المبين .

﴿ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝ ﴾

أى : نقص عليك ﴿ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ .. ۝ ﴾ [القصص] والنبأ : الخبر الهام الذى يجب الالتفات إليه ، وهل هناك أهم من إرسال موسى - عليه السلام - إلى مَن ادعى الألوهية ؟ لذلك أفرد لهما هذه السورة ، فلم يَرِدْ فيها ذكْر آخر إلا لقارون ؛ لأنها تعالج مسألة القمة ، مسألة التوحيد ، وتردّ على مَن ادّعى الألوهية ، ونازع الله تعالى فى صفاته .

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ .. ۝ ﴾ [القصص] لأن تلاوته وقصصه حق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ .. ۝ ﴾ [آل عمران]

والقصص مأخوذ من قصِّ الأثر وتتبّعه ، وقد اشتُهر به بعض العرب قديماً ، ومهروا فيه حتى إنهم ليعرفون أثر الرجل من أثر المرأة .. إلخ ، وقد اشتُهرت عندهم قصة الرجل الذى فقد جمله ، وقابل أحد القصاصين ، وسأله عنه فقال : جملك أبتر[1] الذَّنَب ؟ قال : نعم ، قال : أعور ؟ قال : نعم ، قال : أعرج ؟ عندها لم يشكّ صاحب الجمل أن هذا الرجل هو الذى أخذ جمله ، فأمسك به وقاضاه .

وفى مجلس القضاء ، قال الرجل : والله ما أخذتُ جملك ، لكنى رأيتُ الجمل يبعثر بَعْره خلفه ، أما هذا فيضع بَعْره مرة واحدة ،

---

(١) الأبتر : المقطوع الذَّنَب (الذيل) من أى موضع كان من جميع الدواب . والبتر : استئصال الشىء قطعاً . [لسان العرب - مادة : بتر] .

فعرفتُ أنه مقطوع الذنب ، ورأيت أحد أخفافه لا يؤثر فى الرمل فعرفتُ أنه أعرج ، ورأيته يأكل من ناحية ويترك الأخرى فعرفتُ أنه أعور .

والحق - تبارك وتعالى - حين يقصُّ علينا يقصُّ الواقع ، فقَصص القرآن لا يعرف الخيال كقصص البشر ؛ لذلك يسميه القصص الحق ، وأحسن القصص ، لأنه يروى الواقع طِبْق الأصل .

﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي(١) نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

معنى ﴿ عَلا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] من العلو أى : استعلى ، والمستعلَى عليه هم رعيته ، بل علا على وزرائه والخاصة من رعيته ، وعلا حتى على الله - عز وجل - فادَّعى الألوهية ، وهذا منتهى الاستعلاء ، ومنتهى الطغيان والتكبُّر ، وما دامت عنده هذه الصفات وهو بشر وله هوىً فلا بُدَّ أنْ يستخدمها فى إذلال رعيته .

﴿ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] جمع شيعة ، وهى الطائفة التى لها استقلالها الخاص ، والمفروض فى المُملِّك أنْ يُسوِّى بين رعيته ، فلا تأخذ طبقة أو جماعة حظوة عن الأخرى ، أما فرعون فقد جعل الناس طوائف ، ثم يسلِّط بعضها على بعض ، ويُسخِّر بعضها لبعض .

---

(١) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله ، ومعنى ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] أى : أنهم يقتلون الذكور فقط ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

ولا شكَّ أن جَعْل الأمة الواحدة عدة طوائف له ملْحظ عند الفاعل ، فمن مصلحته أن يزرع الخلاف بين هذه الطوائف ويشغل بعضها ببعض ، فلا تستقر بينهم الأمور ، ولا يتفرغون للتفكير فيما يقلقه ويهزّ عرشه من تحته ، فيظل هو مطلوباً من الجميع .

والقبط كانوا هم سكان مصر والجنس الأساسى بها ، ثم لما جاءها يوسف ـ عليه السلام ـ واستقرَّ به الأمر حتى صار على خزائنها ، ثم جاء إخوته لأخْذ أقواتهم من مصر ، ثم استقروا بها وتناسلوا إلا أنهم احتفظوا بهويتهم فلم يذوبوا فى المجتمع القبطى .

وبالمناسبة يخطىء الكثيرون فيظنون أن القبطىَّ يعنى النصرانى وهذا خطأ ، فالقبطى يعنى المصرى كجنس أساسى فى مصر ، لكن لما استعمرت الدولةُ الرومانية مصرَ كان مع قدوم المسيحية فأطلقوا على القبطى (مسيحى) .

لكن ، ما السبب فى أن فرعون جعل الناس طوائف ، تستعبد كلٌّ منها الأخرى ؟ قالوا : لأن بنى إسرائيل كانوا فى خدمة المستعمر الذى أزاح حكم الفراعنة ، وهم ملوك الرعاة ، فلما طُرِد ملوك الرعاة من مصر كان طبيعياً فيمَنْ يحكم مصر أن يضطهِد بنى إسرائيل ؛ لأنهم كانوا موالين لأعدائه ، ويسيرون فى ركابهم ، ومن هنا جاء اضطهاد فرعون لبنى إسرائيل .

والقرآن الكريم حينما يتحدث عن ملوك مصر فى القديم وفى الحديث يُسمِّيهم فراعنة ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَفِرْعَوْنَ ذِى الأَوْتَادِ (١٠) ﴾ [الفجر]

وهنا فى قصة موسى ـ عليه السلام ـ قال أيضاً : فرعون . أما فى قصة يوسف عليه السلام فلم يأت ذكْر للفراعنة ، إنما قال ﴿ الْمَلِكُ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] وهذه من مظاهر الإعجاز فى القرآن الكريم ؛ لأن الحكم فى مصر أيام يوسف كان لملوك الرعاة ، ولم يكُنْ للفراعنة ، حيث كانوا يحكمون مصر قبله وبعده لما استردوا مُلْكهم من ملوك الرُّعاة ؛ لذلك فى عهد يوسف بالذات قال ﴿ الْمَلِكُ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف] فلم يكُنْ للفرعون وجود فى عصر يوسف .

فمعنى ﴿ يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. ﴿٤﴾ ﴾ [القصص] يعنى : تستبد طائفة الأقباط ، وهم سكان مصر الأصليون بطائفة بنى إسرائيل لينتقموا منهم جزاءَ موالاتهم لأعدائهم .

وأول دليل على بطلان ألوهية فرعون أن يجعل أمته شيَعاً ، لأن المألوهين ينبغى أن يكونوا جميعاً عند الإله سواء ؛ لذلك يقول تعالى فى الحديث عن موكب النبوات : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. ﴿١٥٩﴾ ﴾ [الأنعام]

ذلك لأن دين الله واحد ، وأوامره واحدة للجميع ، فلو كنتم مُتمسكين بالدين الحق لجعلتُم الناس جميعاً شيعة واحدة ، لا يكون لبعضهم سلطة زمنية على الآخرين ، فإذا رأيت فى الأمة هذه التفرقة وهذا التحزُّب فاعلم أنهم جميعاً مدينون ؛ لأن الإسلام ـ كما قُلْنا ـ فى صفائه كالماء الذى لا طعمَ له ، ولا لون ، ولا رائحة .

وهذا الماء يحبه الجميع ولا بُدَّ لهم منه لاستبقاء حياتهم ، أما أن نُلوِّن هذا الماء بما نحب ، فأنت تحب البرتقال ، وأنا أحب المانجو ، وهذا يحب الليمون .. إلخ إذن : تدخلتْ الأهواء ، وتفرَّق الدين الذى أراده الله مجتمعاً .

لذلك يقول رسول الله ﷺ : « ستفترق أمتى بضع وستون ، أو بضع وسبعون فرقة ، كلهم فى النار إلا ما أنا عليه وأصحابى »[1] .

فشيعة الإسلام إذن واحدة ، أما أن نرى على الساحة عشرات الفرَق والشِّيَع والجماعات ، فأيّها يتبع المسلم ؟ إذن : ما داموا قد فرَّقوا دينهم ، وكانوا شيعاً فلستَ منهم فى شىء .

ثم يُفسِّر الحق سبحانه هذا الاستضعاف ﴿يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ .. (٤)﴾ [القصص] فيقول ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ .. (٤)﴾ [القصص] وقلنا : إن الإفساد أن تأتى على الصالح بذاته فتفسده ، فمن الفساد - إذن - قتْل الذُّكْران واستحياء النساء ؛ لأن حياة الناس لا تقوم إلا باستبقاء النوع ، فقتل الذّكْران يمنع استبقاء النوع ، واختار قَتْل الذكْران ؛ لأنهم مصدر الشر بالنسبة له ، أمّا النساء فلا شوكة لهُنَّ ، ولا خوفَ منهن ؛ لذلك استبقاهُنَّ للخدمة وللاستذلال .

وحين نتتبع هذه الآية نجد أنها جاءت فى مواضع ثلاثة من كتاب الله ، لكل منها أسلوب خاص ، ففى الآية الأولى يقول تعالى : ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. (٤٩)﴾ [البقرة]

وفى موضع آخر : ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. (١٤١)﴾ [الأعراف] وهاتان الآيتان على لسان الحق تبارك وتعالى .

أما الأخرى فحكاية من الله على لسان موسى - عليه السلام - حين يُعدِّد نعَم الله تعالى على بنى إسرائيل ، فيقول :

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « إن بنى إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين ملة ، كلهم فى النار إلا ملة واحدة ، قالوا : ومن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى » .

﴿ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم]

فالواو فى ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم] لم ترد فى الكلام على لسان الله تعالى ، إنما وردتْ فى كلام موسى ؛ لأنه فى موقف تَعداد نعَم الله على قومه وقصده ؛ لأن يُضخِّم نعم الله عليهم ويُذكِّرهم بكل النعم ، فعطف على ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم] قوله ﴿ وَيُذَبِّحُونَ .. ⁽٦⁾ ﴾ [إبراهيم]

لكن حين يتكلَّم الله تعالى فلا يمتنُّ إلا بالشىء الأصيل ، وهو قتْل الأولاد واستحياء النساء ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - لا يمتنّ بالصغيرة ، إنما يمتنُّ بالشىء العظيم ، فتذبيح الأبناء واستحياء النساء هو نفسه سوء العذاب .

وقوله مرة ﴿ يُذَبِّحُونَ .. ⁽٤٩⁾ ﴾ [البقرة] ومرة ﴿ يُقَتِّلُونَ .. ⁽١٤١⁾ ﴾ [الأعراف] لأن قتل الذُّكْران أخذ أكثر من صورة ، فمرَّة يُذبِّحونهم ومرة يخنقونهم .

ومعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ .. ⁽١٤١⁾ ﴾ [الأعراف] من السَّوْم ، وهو أنْ تطلب الماشية المرعى ، فنتركها تطلبه فى الخلاء ، وتلتقط رزقها بنفسها لا نقدمه نحن لها ، وتسمى هذه سائمة ، أما التى نربطها ونُقدِّم لها غذاءها فلا تُسمَّى سائمة .

فالمعنى ﴿ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ .. ⁽١٤١⁾ ﴾ [الأعراف] يعنى : يطلبون لكم سوء العذاب ، وما داموا كذلك فلا بُدَّ أنْ يتفنَّنوا لكم فيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ⁽٥⁾ ﴾

فلن يدوم لفرعون هذا الظلم ؛ لأن الله تعالى كتب ألاّ يفلح ظَلُوم ، وألاّ يموت ظلوم ، حتى ينتقم للمظلوم منه ، ويُريه فيه عاقبة ظلمه ، حتى إن المظلوم ربما رحم الظالم ، وحَسْبك من حادث بامرىء ترى حاسديه بالأمس ، راحمين له اليوم .

وهنا تُطالعنا غضبة الحق - تبارك وتعالى - للمؤمنين ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ .. ۝ ﴾ [القصص] والمنة : عطاء مُعوّض ، وبدون مجهود من معطى المنة ، كأنها هبَة من الحق سبحانه ، وغضبة لأوليائه وأهل طاعته ؛ لأن الحق - تبارك وتعالى - كما قال الإمام على : إن الله لا يُسلم الحق ، ولكن يتركه ليبلو غَيْرة الناس عليه ، فإذا لم يغاروا عليه غَارَ هو عليه .

والحق - تبارك وتعالى - حينما يغَارُ على الذين استُضعفوا لا يرفع عنهم الظلم فحسب ، وإنما أيضاً ﴿ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً .. ۝ ﴾ [القصص] أئمة فى الدين وفى القيم ، وأئمة فى سياسة الأمور والملك ﴿ وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ ﴾[القصص] أى : يرثون مَنْ ظلمهم ، ويكونون سادةً عليهم وأئمةً لهم ، فانظر على كم مرحلة تأتى غيرة الله لأهل الحق .

ولولا أن فرعون - الذى قوى على المستضعفين وأذلَّهم - تأبَّى على الله ورفض الانقياد لشملته رحمة الله ، ولعاشَ هو ورعيته سواء .

لذلك أهل الثورات الذين جاءوا للقضاء على أصحاب الفساد وإنصاف شعوبهم ممَّنْ ظلمهم ، كان عليهم بعد أنْ يقضوا على الفساد ، وبعد أن يمنعوا المفسد أن يُفسد ، ويحققوا العدالة فى المجتمع ، كان عليهم أنْ يضموا الجميع إلى أحضانهم ورعايتهم ، ويعيش الجميع بعد تعديل الأوضاع سواسية فى مجتمعهم ، وبذلك نأمن الثورة المضادة .

ثم يقول تعالى استكمالاً لمنَّته :

﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾

قوله تعالى ﴿ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] نعرف أن الأرض مكان يحدث فيه الحدَث ، لأنّ كل حدَث يحتاج إلى زمان وإلى مكان ، فالمعنى : نجعل الأرض مكاناً لممكَّن فيها ، والتمكين يعنى : يتصرف فيها تسلطاً ، ويأخذ خيرها .

وقد شرح الحق سبحانه لنا التمكين في عدة مواضع من القرآن ، ففى قصة يوسف عليه السلام : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف] مكين يعنى : لك عندنا مكانة ومركز ثابت لا ينالك أحد بشىء ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف] يعنى : أعطيناه سلطة يأخذ بها خير المكان ، ثم يُصرِّف هذا الخير للآخرين .

وقوله تعالى : ﴿ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [القصص] وهامان هو وزير فرعون ، ولابد أنه كان لكل منهما جنود خاصة غير جنود الدولة عامة ، كما نقول الآن : الحرس الجمهورى ، والحرس الملكى ، والجيش .

أو : أن هامان يصنع من باطن فرعون ، فالملك لا يزاول أموره إلا بواسطة وزرائه ، وفى هذه الحالة يأخذ الجنود الأوامر من هامان . أو : أن هامان كان له سلطة ومركز قوة لا تقل أهمية عن سلطة فرعون ، وربما رفع رأسه وتطاول على فرعون فى وقت من الأوقات .